مقدمـــة

بنو إسرائيل عبر التاريخ قديمًا وحديثًا

عندما اختمرت في ذهني فكرة استعراض تاريخ بني إسرائيل في منطقة الشرق الأدنى؛ ترددت كثيرًا حيث شعرت بأن ذلك لن يكون أمرًا سهلاً، إذ أن تاريخ هذه القبائل اليهودية القديمة له جذور عميقة وغامضة أحيانًا في منطقة الشرق الأدنى، وقد يتطلب الخوض فيه الكثير من الجهد والوقت والبحث، كما أن الكتابة به تفصيلاً قد تحتاج إلى مساحات واسعة ومتعددة، غير أنني أثناء ترددي هذا طرحت على نفسي السؤال المهم وهو: لماذا استعرض هذا التاريخ الطويل والمليء بالمغالطات والتزوير والغموض والادعاءات غير السوية، وقد سبقني الكثيرون سواء كانوا من العرب أو من غير العرب في طرق هذا الموضوع الحساس؟ وكان لا بد من إيجاد الجواب المقنع لهذا السؤال، وفعلاً هداني الله إلى الجواب وهو أن هذه الفئة من المخلوقات البشرية التي تعتبر نفسها شعب الله المختار، أو أنه الشعب الذي اختاره الله لنفسه، قد برعت في تزوير الحقائق التاريخية المتعلقة بمنطقة الشرق الأدنى، وبعد أن قرأت

في أدبياتهم الدينية أن الإله الذي يعنون هو إله اليهود فقط، وأن اسمه "يهوه"، وأن له مساعدًا اسمه "ميتاترون"، وكما يقولون في أدبياتهم وعلى الأخص "التلمود" أن الله يعمل لمدة ساعتين في اليوم ثم يستريح ويأخذ مكانه نائبه "ميتاترون" ليعمل طوال المدة المتبقية أي ٢٢ ساعة الأخرى من اليوم في تسجيل حسنات بني إسرائيل لذلك اليوم، وهذا يعني أن الله يعمل ساعتين ونائبه يكمل اليوم بعده بتسجيل حسنات بني إسرائيل وكأن الله ونائبه لا شغل لهما سوى تسجيل حسنات بني إسرائيل فقط، أما الكون بنظامه العظيم وكواكبه ومجراته وسماواته وأرضه وما بينهما والبشر جميعًا من غير اليهود، لا يشغل الله نفسه بكل هذه العظمة التي تحتار فيها عقول البشر؛ ولكن يشغل نفسه هو ونائبه الموهوم "ميتاترون" في تسجيل حسنات بني إسرائيل فقط! ألا يدعو هذا إلى الدهشة والاستغراب؟ ليس من ادعاءات بني إسرائيل وحدها بل وأيضًا من الذين تنطلي عليهم هذه الأكاذيب القائمة على الخيالات الواسعة والأوهام التي تفوق كل الحدود، فيصدقونها ويتناقلونها وكأنها حقائق ثابتة منسوبة إلى الله العلي القدير، هذه الافتراءات اليهودية وغيرها كانت العوامل التي جعلتني أحاول استعراض هذا التاريخ اليهودي المليء بالمفاجئات والملابسات والأباطيل، إضافة إلى أن هذه الأقوام التي غزت بلادنا العربية من أقاصي بقاع الأرض تحت ذريعة وعد سماوي من الإله "يهوه"، أهداهم فيه أرض فلسطين

مُلكًا أزليًا دون مساعدة من نائب الإله "ميتاترون"، كان العامل الآخر الذي جعلني أقرر وضع هذا الكتاب لكي أصل إلى جزء من الحقيقة ولا أقول الحقيقة كاملة، اطلعت على كتبهم الدينية خاصة التوراة والتلمود وبعض الأدبيات اليهودية، فوجدت أن هناك تزويرًا للحقائق التاريخية، وأن التوراة التي تعتبر - من وجهة نظر بني إسرائيل – سجلاً تاريخيًا لحياتهم ومعاناتهم التي يدَّعون وسبيهم وحروبهم وشتاتهم وتيههم الأكبر، وتبين لي أن توراتهم هذه تشرح الأحداث القديمة دون أن توثقها بالزمن، أي أن التوراة تسجيل تاريخي أسطوري ينقصه التسلسل الزمني، الأمر الذي يترك الباب مفتوحًا أمام نسبة الأحداث إلى أزمنة متغيرة تتفق مع أهدافهم وتطلعاتهم المتعلقة بتحقيق ذلك الوعد المزعوم.

كان لا بدّ لليهود أن يزيفوا تاريخ المنطقة ليساعدهم على الوصول إلى غاياتهم الخبيثة، وقد تم ذلك عن طريق المستشرقين الأوروبيين الذين استقدموهم أو دفعوهم لكتابة تاريخ المنطقة، بما يتلائم وأهدافهم التي عملوا قرونًا طويلة لتحقيقها، ومن المؤسف أننا نحن العرب أخذنا ما كتبه المستشرقون وجعلناه تاريخنا المعتمد دون مناقشة.

لا أظن أنني أنا الوحيد الذي يستعرض تاريخ بني إسرائيل في المنطقة العربية، بل هناك الكثيرون من المؤرخين والمفكرين منذ

منتصف القرن العشرين الماضي حاولوا أن يضعوا بين يدي الإنسان تاريخ وفلسفة بني إسرائيل، وقد حاول البعض اكتشاف الحقيقة فأصاب نوعًا، والبعض لم يحالفه الحظ في التوصل إلى معلومات كاملة نظرًا لظروف خارجة عن إرادته، ونظرًا للزخم الهائل من التزوير والتضليل في ذلك التاريخ، ولهذا يمكن القول بإن معظم هذه المحاولات لم ترقَ إلى درجة الكمال في التوصل إلى الحقائق وإلى توضيح صورة جذور بني إسرائيل وفكرهم وثقافاتهم الدينية ومعتقداتهم المختلفة وعاداتهم، وحروبهم فيما بينهم من جهة، وفيما بينهم وبين الشعوب الأخرى التي قُدِّر لهم أن يعيشوا بينها من جهة ثانية، ولا ينكر أحد الجهود التي بذلها هؤلاء المؤرخون والمفكرون والباحثون، أو أن يقلل من قيمتها وجدواها، ولست سوى مجرد باحث يضيف شيئًا من المعرفة التي أحسبها ضرورية للقارئ العربي والمسلم عن حياة بني إسرائيل من النواحي التاريخية والدينية والاجتماعية بقدر ما يتيسر من معلومات حول تلك الطوائف الدينية التي جاءت لغزو بلادنا العربية وتمكنت من فرض الهيمنة على عالم عربي مترامي الأطراف.

فلماذا يحاول أهل الفكر تقصي حقائق التاريخ اليهودي؟ الإجابة على سؤال كهذا إنما تأتي من رغبة الباحثين والمفكرين في استكشاف الحقائق الغامضة التي يلفها الضباب حول تاريخ بني إسرائيل ووجودهم في شبه الجزيرة العربية، فيحاولون سبر أغوار حياة

وتاريخ وعقائد وتقاليد الآخرين، لكي يكونوا قادرين على دحض المفاهيم المغلوطة أحيانًا والادعاءات التي تقوم غالبًا على الباطل، خصوصًا في غياب المعرفة الحقيقية لطبيعة تلك الطوائف الدينية، خصوصًا في أعقاب غزوها لمنطقتنا العربية في الشرق الأدنى.

التوفيق في هذا الاتجاه لم يحالف البعض من المؤرخين العرب، فلم يتمكنوا من إعطاء صورة حقيقية عن تلك الطوائف القبلية البدوية من أهل الصحاري والبوادي في جزيرة العرب، وقد ترجع أسباب ذلك إلى اعتماد من بحثوا وكتبوا وألّفوا الكتب في هذه المسألة، على ما جاء في الكتب المقدسة وفي مقدمتها "التوراة"، وما تحكيه عن تاريخ تجرد من التسلسل الزمني، وأقيم على الأساطير القديمة، اعتمادًا عليه أكثر من سرد الوقائع التاريخية بذاتها، ولم يكلف المؤرخون العرب أنفسهم - فيما يبدو – عناء البحث والتقصي والتدقيق فيما أعطته المكتشفات الأثرية، وما توصل إليه علماء الآثار (الأركيولوجيون)، من كتابات ونقوش تحكي تاريخ بني إسرائيل بشكل مغاير لما ورد في كتبهم الدينية من أحداث بالمقارنة مع ما جاء في تلك الكتب، ومن خلال المكتشفات والأبحاث والكتابات والنقوش التي جادت بها الحفريات الأثارية خلال القرن الماضي، نرى أن التاريخ التوراتي الغامض والمبهم، لا يُعد أكثر من جانب جزئي، يجافي الصواب في أغلبه من تاريخ بني إسرائيل وجذورهم

الممتدة عميقًا في الزمن في الصحاري والبوادي الشاسعة المترامية الأطراف، في منطقة عُرفت مؤخرًا بمنطقة الشرق الأدنى..

(وهنا ينبغي أن أنوه بأن المقصود بالتوراة هي الأسفار الخمسة الأولى في الكتاب المقدس (البنتاتويخ)، والتي نسبت لموسى عليه السلام، ولا أقصد الكتاب المقدس ككل، لهذا رأيت أن أشير إلى هذه الحقيقة من واقع الحرص الشديد على احترام وتقدير الديانات السماوية جميعها، وإننا هنا نتحدث عن الأسفار الخمسة الأولى في الكتاب المقدس من النواحي التاريخية، ولن ندخل في صلب المعتقدات الدينية أو العقائد المختلفة للشعوب، إذ أننا بصدد بحث تاريخي لا عقائدي على الإطلاق).

في أعقاب قيام دولة صهيونية في منطقة الشرق الأدنى عرفت بدولة "إسرائيل"؛ استطاعت خلال مدة وجيزة من قيامها أن تبهر الشعوب الأخرى وتستحوذ على انتباههم، وتوجه فكرهم إلى ما هو بعيد كل البعد عن الحقيقة، بما قامت به من أعمال وما نشرته من إعلام لا يمت إلى حقيقة مأساة شعب فلسطين العربي، ولا إلى واقع معاناة شعوب الشرق الأدنى بسبب وجودها في المنطقة وادعاءاتها بوعد سماوي يمنحها شرعية اقتناص الأرض والهيمنة على الشعوب الشرق أوسطية، واقتناص خيراتها وتسخيرها لخدمة الأهداف الاستعمارية العنصرية، وقد أعلنت عن نواياها بتهويد كل الأرض

الفلسطينية بالتركيز على تهويد مدينة القدس، وإعادة بناء هيكل سليمان المزعوم، وحيث أن عمليات التهويد والإعداد لبناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة في ظل التداعيات والانقسام والتشرذم العربي، وما آلت إليه أحوال الفلسطينيين بعد توقيع اتفاقيات أوسلو، فقد أخذت مخططات الصهيونية الدولية تطل برأسها غير آبهة بالاعتراضات العربية الخجولة، لهذا دفعني شعوري بالواجب تجاه الأمة التي أفخر بالانتماء إليها، وكباحث في الشؤون السياسية والتاريخية والدينية أن استعرض تاريخ بني إسرائيل، وعقائدهم الدينية الواردة في التوراة والتلمود، واستغلال النصوص الواردة فيهما سياسيًا ونفسيًا للتأثير على عقول البشر في العالم، باللجوء إلى الأكاذيب والتضليل والخداع فيما يتعلق بإقامة دولة لليهود على أرض فلسطين العربية.

العلماء والمنقبون الأثريون والمؤرخون بحثوا خلال نصف القرن الماضي في جذور هذه الفئة، التي استطاعت رغم قلة عددها أن تفرض على سكان الكرة الأرضية ذلك الزخم من الهيمنة الفكرية والسيطرة، وأعطت الانطباع الجبار عن بني إسرائيل بأنهم شعب الله المختار! لدرجة أن البعض من العرب أصبح يؤمن بهذه الأسطورة اليهودية، فجاءت أبحاث بعض هؤلاء العلماء والمؤرخين من غير العرب، حقيقية بعيدة عن الغموض التوراتي..

ومنهم من أغفل عدة جوانب لا تخدم مصالح اليهود، خوفًا من الاتهام بمعاداة السامية، ومنهم من كرَّس بحثه للوصول إلى الحقيقة المجردة دون النظر إلى تحيز معين، ودون التخوف من التشويه والعقاب والاتهام بمعاداة السامية والإنسانية.. الخ، وكان من ضمن الباحثين عدد من اليهود الذين تجردوا من انتماءاتهم وكرسوا أبحاثهم للوصول إلى الحقيقة، وليس شيئًا آخر سوى الحقيقة، فجاءت أبحاثهم جادة حازت على إعجاب المحافل الفكرية والتاريخية العالمية، وتبوأت مكانة مرموقة لدى أهل الفكر، ولاقت التقدير والإعجاب على كافة المستويات باستثناء الدولة العبرية العنصرية بطبيعة الحال، وبعض الجماعات اليهودية المتعصبة والعنصرية في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول العالم الأخرى، وهنا لا بد من الاستشهاد بما ذكرته الأكاديمية "هلين صادر" أستاذة علم الآثار في الجامعة الأمريكية ببيروت تحت عنوان: (أريحا كانت مهجورة في تلك الفترة مما يختلف مع ما جاء في التوراة).

تقول الباحثة هلين صادر إن الاتجاه السائد في علم الآثار يأخذ بآراء يتناقض بعضها مع ما ورد في نصوص توراتية عن اجتياح الإسرائيليين لفلسطين، وكذلك وجودهم التاريخي في مصر، وترى الدكتورة صادر أن الحفريات الأثارية في السنوات الثلاثين المنصرمة أدت إلى التوصل إلى معلومات جديدة، سمحت بإعادة النظر فيما يسمى مجيء الإسرائيليين إلى بلاد كنعان، وتسمح هذه المعلومات

كذلك بإعادة النظر في موضوع القول بوجود الإسرائيليين في مصر كشعب واحد، وإنهم تركوها "بقيادة موسى ودخلوا فلسطين بقيادة يشوع بن نون كجماعة موحدة"، وهم الذين يوصفون بأنهم كانوا (١٢) قبيلة أو سبطًا، وإنهم احتلوا فلسطين في حرب واحدة.

هكذا تفسر الرواية التوراتية مجيئهم وسكنهم في بلاد كنعان، ووردت في التوراة قائمة بكل المدن التي قيل إن العبرانيين احتلوها، وقد جرب العلماء سابقًا أن يجدوا إطارًا تاريخيًا لما ورد في التوراة، فنظروا في التاريخ المصري ليروا من كان الفرعون خلال فترة بناء مدينة رعمسيس، التي قالت التوراة إنهم كانوا يبنونها، وقد ورد في التوراة في الإصحاح الأول من سفر الخروج عن الإسرائيليين أن المصريين جعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن "فيثوم ورعمسيس"، ولكن المصريين انتقموا من بني إسرائيل بسبب مناصرتهم للهكسوس في احتلال مصر السفلى، فاستعبدوهم بعنف.

ربما يكون رعمسيس الثاني عاش في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولأن في التوراة ذِكرًا لمدينة اسمها مدينة "رعمسيس" التي تقول النصوص المصرية إنه بناها، فقد اتخذ هذا الأمر إطارًا تاريخيًا وضعت فيه قصة خروج الإسرائيليين من مصر، وتضيف الدكتورة صادر إن هذا الإطار الأول كان مقبولاً في الفترة الأولى،

لكننا نعرف من جهة ثانية، أن خضة كبيرة أو أزمة شمولية وقعت في الشرق الأدنى – سوريا ولبنان وفلسطين – انتهت على أثرها كل حضارات الألف الثانية قبل الميلاد ومنها: الحثية والمسينية ودخل من سموا بشعب البحر إلى مصر من فلسطين ومن البحر، كما أسسوا مدنًا في جنوب الساحل الفلسطيني.

ويقال أيضًا إنه في الوقت نفسه الذي هدمت هذه الشعوب حضارة الألف الثانية قبل الميلاد على الشاطئ السوري - اللبناني – الفلسطيني، دخلت قبائل آرامية قديمة وأسست دويلات آرامية في سوريا، وقبائل إسرائيلية دخلت فلسطين وأنهت حضارة الألف الثانية الكنعانية، إذن كان هذا هو الرأي التقليدي كما تقول الدكتورة صادر، إلا أن أول اهتزاز لهذه النظرية جاء من علماء التوراة أنفسهم خاصة من مدرسة ألمانية تقول إنه يتبين لدى التعامل مع التوراة بنظرة نقدية أنه لم يحدث أي غزو يهودي لأرض فلسطين.

وللتوراة عدة قصص تفسر مجيء الإسرائيليين إلى بلاد كنعان (فلسطين) منها اثنتان متعاكستان، قصة تقول إن إبراهيم عليه السلام جاء من "أور" الكلدانية في بلاد الرافدين وسكن فلسطين، والثانية هي قصة "الخروج" وهذا يعني أن هناك عدة قصص جمعت في التوراة، فالتوراة كما نعرفها لم يكتبها رجل واحد بل هي مجموعة وحدات جاءت على فترات مختلفة وجمعت بالشكل الحالي

في القرن الثامن بعد الميلاد، وتبين أن الكتب التوراتية خاصة سفر "الخروج" هي تقاليد كتبت متأخرة بعد رجوع الإسرائيليين من السبي في بابل، وكل هذه القصص كما تقول الدكتورة صادر هي أقرب إلى "أسطورة"، من حيث أنها تسعى إلى أن تفسر بعد زمن طويل ضاعت فيه الذاكرة قصة نشأة معينة أو أصل معين.

وتضيف: أما النصوص التاريخية فلا علاقة لها بالمعتقد الديني، العلماء الألمان كانوا أول من نظر في هذه المسألة بهذا الشكل إذ أنهم رأوا أن الأمر ليس أكثر من قبائل كانت تروح وتجيء متنقلة في مناطق "الأطراف" ثم استقرت، وكانت هذه أول "زعزعة" للقصة التوراتية عن تاريخ الإسرائيليين، أما الزعزعة الثانية فقد صدرت عن علماء الآثار المتخصصين في موضوع التوراة، من خلال سعيهم إلى التأكد فيما إذا كان ما ورد في التوراة قد حصل فعلاً أم أنه لم يحصل، فكانت حصيلة أبحاثهم أنه من كل المدن والبلدات التي ورد أن الإسرائيليين احتلوها رصدت في واحدة أو اثنتين بمستويات من الدمار لطبقات العصر البرونزي الحديث، والمفترض أن الإسرائيليين سكنوا في تلك المدن، لكن لم يظهر أي دمار يدل على ذلك، وأعظم مثل على هذا الأمر قصة "أريحا" واحتلالها وتدمير أسوارها بالطريقة التي تصفها التوراة مما لا ينطبق على الواقع، فأريحا كانت مهجورة في تلك الفترة، وكذلك ما عرف باسم "خربة التل"، فإنها لم تكن موجودة أساسًا كي يجري

احتلالها. كما أن المكتشفات الأثرية الحديثة تؤكد أن مدينة أريحا كانت مدينة مدمرة ومهجورة قبل ما لا يقل عن ثلاثمائة سنة قبل وصول الموسويين إليها، مما ينفي نفيًا قاطعًا ما جاء في التوراة حول تدمير أريحا على أيادي بني إسرائيل ويشوع بن نون.

أما ما تسميه الباحثة الأكاديمية اللبنانية "البرهان القاطع" فقد توصل إليه العلماء الإسرائيليون بعد سنة ١٩٦٧ واحتلال الضفة الغربية ووسط فلسطين، فقد أجرى هؤلاء العلماء مسحًا شاملاً لفلسطين كلها، منطقة السهول التي كان الكنعانيون فيها وكذلك منطقة الجبال الوسطى، ونتج عن ذلك اكتشاف مئات المواقع الأثارية الصغيرة، التي هي أقرب إلى مستوطنات أو مواقع ريفية ولم تكن مدنًا كبيرة.

ونتيجة الحفريات التي أجروها في هذه المستوطنات اتضح أن كل طرق الحياة لم تتغير عما كانت عليه قبلاً، وأن الناس كانوا هم الناس أنفسهم دون أن يجري أي انقطاع حضاري، بل جاءت الأمور تكملة لما كانت عليه في السابق الحياة المدنية توقفت لمدة قرنين وازدهرت بدلاً منها المستوطنات الريفية، إلا أن أهل المستوطنات كانوا يعرفون الزراعة، أي أن أغلبهم لم يكونوا بدوًا بل من سكان تلك الأرض، وقيل إن المستوطنات جمعت شرائح اجتماعية متعددة،

قسمًا من البدو أو شبه البدو وقسمًا من الحضر، سكنت فيها وتعايشت في فترة من انعدام الاستقرار.

والاستنتاج الذي خرج به هؤلاء العلماء هنا؛ هو أن هذا الشعب نفسه أكمل حياته ولم يدخل عليه أناس من الخارج حاملين معهم حضارة جديدة، بعد ذلك عاد الاستقرار إلى هذه المستوطنات، وتدريجيًا أخذت تنشأ مدن بدلاً منها واحدة تلو أخرى.

وتتحدث التوراة عن وجود الإسرائيليين في مصر لعدة أجيال، أما تاريخيًا فليس هناك نص مصري يذكر وجود الإسرائيليين، هناك نص واحد هو نصب ملكي للفرعون "ميرنبتاح" الذي عاش في القرن ١٢ ــ ١٣ قبل الميلاد، وقد جاء فيه أنه تغلب على "إسرائيل" لكن كلمة إسرائيل هنا تتضارب فيها التفسيرات، فالبعض يعتبرها إشارة إلى شعب إسرائيل، والبعض الآخر يعتبرها اسمًا لمنطقة في شمال سيناء أو ما يعرف اليوم بمنطقة النقب في جنوب فلسطين، ومع أن العلاقات بين فلسطين ومصر قامت منذ آلاف السنين فليس هناك ما يدل على وجود الإسرائيليين في مصر، والسبب في هذا قد يرجع إلى أن الإسرائيليين دخلوا مصر مع الهكسوس، وكانوا قد تذوبوا في البيئة الهكسوسية واعتبروا من الهكسوس الذين غزو مصر السفلى وحكموها لمدة ١٥٠ عامًا، وهم يرجعون في أصولهم إلى بلدان في آسيا الصغرى.

العلماء الإسرائيليون على أساس أبحاثهم الأثارية ونتائجها توصلوا إلى نتيجة، هي أنه لم يكن هناك غزو لفلسطين كما جاء في التوراة وليس هناك من دلائل سوى تلك التي تشير إلى استمرارية الحضارة في فلسطين لكن في أوضاع اقتصادية واجتماعية مختلفة، وبعد هذه الفترة الانتقالية نشأت مملكتان - هما يهودا والسامرة - لا شك في تاريخيهما، إذ ذكرتا في نصوص غير توراتية، منها نصوص أشورية وبابلية وغيرها، وأهلهما ساميون عبدوا آلهة متعددة، أما التوحيد فقد توصلوا إليه في فترة متأخرة.

ويستمد من نصوص مختلفة أن فكرة آلة خاص بالجماعة انتشرت في الجنوب في مملكة يهودا، فتكونت ديانة التوحيد في القرن السادس قبل الميلاد، وتأصلت بعد السبي إلى بابل، حيث صار العائدون يكتبون قصص التوراة، والآن هناك فريقان من العلماء، فريق يأخذ بهذه النظرية، وفريق آخر يرفضها ويقاومها، ويبقى متمسكًا بالنظرة التقليدية في هذا المجال.

اجمع علماء التاريخ والأركيولوجيا بأن كتابة التاريخ تأتي على نوعين.. الأول أسطوري يقوم على الروايات المتوارثة والمتناقلة من جيل إلى آخر، ومعظمها روايات مجازية تختلف في نصوصها بين جيل وجيل وبين مكان وآخر أيضًا، كما أن الروايات بحد ذاتها تخضع غالبًا للمبالغة أحيانًا نظرًا لتعدد الرواة واختلاف أساليبهم، فلكل راوي أسلوبه في التعبير والوصف، فإما أن يزيد على الرواية

التي سمعها أو ينقص منها، وهكذا مع مرور الزمن وباختلاف الرواة تصبح هذه الرواية أو تلك أسطورية مشوهة إلى حد كبير، وبعيدة كل البعد عن الواقع، ولهذا أطلق الباحثون والعلماء على هذا التاريخ اسم (التاريخ الأسطوري). أما النوع الثاني فهو التاريخ المدون، وهو الذي يقوم على المكتشفات الأثارية الحديثة والكتابات القديمة والنقوش التي وجدت على تلك المكتشفات، خصوصًا ما تم اكتشافه خلال القرن العشرين بما توفر للإنسان من وسائل تقنية ساعدته على قراءة الكثير من الكتابات القديمة التي كانت غامضة سابقًا وفي مقدمة تلك الوسائل الحاسوب الإلكتروني (الكمبيوتر).

كان لابد لنا نحن العرب أن نبحث في ذلك التاريخ الطويل باعتباره سجلاً حافلاً بحياتنا في المشرق العربي، وبعد أن تأكد لنا أن التاريخ التوراتي هو تاريخ لا يفي بالحاجات المطلوب معرفتها، وقد تكونت لدينا القناعة بأن أحبار اليهود حين دونوا التاريخ التوراتي كانوا تحت تأثير الأحلام السياسية بالعيش في منطقة الشرق الأدنى الغنية، وتخطيطهم المتعلق بغزوهم لأرض كنعان (فلسطين)، واحتلالها لتكون نقطة انطلاق لبلدان المنطقة التي يرمون إلى إخضاعها واقتناص ثرواتها وخيراتها، وقد تم ذلك تحت عباءة وعد سماوي لهم بتلك الأرض، وكأن السماء التي وعدتهم بها كانت وكالة عقارات مرخصة، أو شركة متخصصة في إصدار سندات الملكية برئاسة نبي الله إسحق عليه السلام - وإسحق من هذا

بريء - وأن الإله يهوه هو مالك تلك الأرض، يهبها على هواه لمن يشاء دون أدنى اعتبار لمصير أصحابها الحقيقيين وسكانها الأصليين! فإن صدقت روايتهم – ولن تصدق – فإن ذلك يدعونا إلى الاعتقاد بأن يهوه هذا إله غير عادل على الأقل، أو أنه بدعة من وحي خيالاتهم وليس له وجود بالأساس، وما أكثر بدع هذه الطائفة! وما أكثر افتراءاتهم التي جاءت في التوراة وكتبهم الدينية، خصوصًا ما جاء في التلمود من قصص مجازية غير حقيقية.

لقد تحقق لهم هذا الهدف بعد أكثر من ألفيتين ونصف الألفية وبعد أن عملوا جديًا لاحتلال فلسطين كنقطة انطلاق إلى كافة بلدان الشرق الأدنى، وقد عملوا هذه المرة بأسلوب مختلف عن الأساليب السابقة، فكانت خططهم الجديدة تتركز حول امتلاكهم لكل وسائل القوة وعلى رأسها قوة (الذهب والمال)، فجمعوه من كل أرجاء الأرض ووضعوه في خزائنهم وسخروه كقوة كبرى، باعتباره القوة الأكبر في السيطرة على الأمم الأخرى واستغلالها لخدمة أغراضهم، كما نشاهده في هذا الزمان من الهيمنة الخفية على أكبر دولة في العالم الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى معظم الدول الكبرى الأخرى ونرى كيف تمكنوا من جر الأمريكيين وغيرهم لخوض حروب بالنيابة عن إسرائيل كلما دعت الحاجة، كما هو الحال في أفغانستان وفي غزو العراق العسكري الثلاثيني واحتلاله، وعن طريق الذهب وضعوا النظام المالي العالمي ونظام صندوق النقد الدولي، وفرضوا

هيمنتهم الخفية على معظم شعوب الأرض ودول العالم، وسخَّروا هذه الهيمنة لخدمة هدفهم الأول وهو إقامة دولة لليهود في منطقة الشرق الأوسط، لتكون اللبنة الأولى في إحكام السيطرة على بلدان وشعوب المنطقة العربية، والأسباب معروفة لا تحتاج إلى تفصيلات وشروحات، فإن ما يتوفر في المنطقة العربية من خيرات طبيعية تحكي عن نفسها بنفسها وتجعلها عرضة لأطماع الطامعين، كما أن من يسيطر على الشرق الأوسط يضمن هيمنته وسيطرته الكاملة على دول العالم وبإمكان الحركة الصهيونية بعد تثبيت تلك السيطرة الإعلان عن هدفها الأكبر وهو بعث دولة العالم الواحدة يرأسها ملك من نسل داود.

حاول العرب أن يقاوموا المد الصهيوني الذي اجتاح بلادهم بغزو خفي الأول من نوعه خلال الألفيتين السابقتين، غير أن التصدي العربي لهذا الغزو أخذ منحى التقليدية دون أن يدركوا أن الغزاة الجدد يختلفون اختلافًا كليًا عن أي غزاة آخرين، الأمر الذي أدى إلى الفشل الكامل في وقف الزحف الصهيوني، علاوة على أن العرب لم يتمكنوا من فهم العقلية الصهيونية اليهودية فهمًا دقيقًا، ولم يكلفوا أنفسهم عناء ومشقة البحث والتدقيق والتمحيص للوصول إلى المعرفة الحقيقية للفكر اليهودي الغازي لبلادهم والسبب الرئيسي لذلك الإهمال العربي يرجع إلى عوامل عديدة، أهمها طمس دور الحضارة والثقافة العامة العربية التي سبقت ظهور الإسلام، إذ

اعتبر العرب تلك العهود "عصور جاهلية"، وصنفوها بالجاهليات الأولى والثانية.. الخ، مما يتهيأ للباحثين والعلماء أن العرب كانوا يعيشون طوال حياتهم متنقلين بين جاهلية وأخرى، برغم أن الجذور العربية في منطقة الشرق الأدنى عميقة جدًا، وموغلة في القدم، وقد نمت من تلك الجذور أعظم الحضارات الإنسانية بكل فروعها، مثل حضارة الكنعانيين العرب والسومريين والبابليين والآشوريين والعموريين والفينيقيين والحثيين والكلدانيين والآراميين، وأقدمها أيضًا حضارة العرب الفراعنة في وادي النيل التي لا زال العالم بأسره يقابلها بالإجلال والتكريم، ولكن ما يؤسف له حقًا، أن عرب هذا الزمان لم يدركوا حتى اللحظة أن الفراعنة كانوا من أصلاب العرب واقحاحهم، الذين عبروا في هجرات متلاحقة من مناطق جنوب جزيرة العرب إلى وادي النيل، سعيًا وراء الخصب والمرعى، واستقروا هناك ثم أقاموا أكبر حضارة عرفتها البشرية وأسسوا نظام دولة كان الأول من نوعه في العالم القديم. ومن المؤسف أيضًا أننا نعتبر الفراعنة أقوامًا غربية غريبة عنا لا تعرف أصولها، وأنهم كانوا غزاة من الأجانب جاءوا إلى وادي النيل من جهات مجهولة، لدرجة أن البعض ممن يرفضون العروبة يقولون بجهالة "نحن لسنا عربًا بل فراعنة"، وسوف نعود للحديث عن هذه المسألة والتأكيد على هوية الفراعنة العربية في فصل لاحق من هذا الكتاب.

أما السبب الآخر والمهم فإنه يرجع إلى الاعتماد على مراجع التاريخ التوراتي الذي يفتقر إلى التسلسل الزمني، وعلى التاريخ الذي وضعه المستشرقون الأجانب استنادًا إلى التوراة اليهودية، وبالتحديد الإصحاحين التاسع والعاشر من سفر التكوين، وإهمال المكتشفات الأثارية الواسعة التي تحققت خلال القرن العشرين، والتي تحكي حقائق التاريخ القديم خلافًا للتاريخ الأسطوري القائم على الروايات والقصص المتناقلة من جيل إلى جيل، ذلك التاريخ الذي اخضع عن قصد وتعمد إلى "الميثولوجية" الواسعة التي أعطت فرصة لتزييف الحقائق التاريخية، خصوصًا فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأدنى التي كانت ولا زالت عيون العالم تتطلع إلى خيراتها وثرواتها الطبيعية والبشرية الهائلة.

لا أحد ينكر بأن ما تعرضت له منطقة الشرق الأدنى على مدار الألفي عام الماضية خصوصًا خلال الألفية الثانية بعد الميلاد قد أخَّر إلى حد كبير انطلاقة شعوبها، وفرض نوعًا من التخلف الفكري ثم ساهم في وجود الإهمال العربي في معرفة حقيقة الدور العربي ومعرفة الفكر المعادي الذي اجتاح المنطقة، لهذا فقد نجد بعض الأعذار لمفكرينا في مثل هذا الإهمال، غير أننا نأخذ عليهم مأخذًا بركونهم إلى واقع جميعهم يعرفون أنه بالإضافة إلى كونه مريرًا، فإنه أيضًا يتنافى مع الحقائق الفعلية لدور شعوب المنطقة العربية.

خلال الألفية الثانية الميلادية كان تعداد سكان العالم لا يزيد على مئات الملايين من البشر، وقد ارتفع في نهاية الألفية إلى حوالي ستة مليارات، وكان متوسط العمر ٣٠ عامًا، ليصل في نهاية الألفية إلى ٦٠ عامًا ويزيد، كانت أوروبا في بداية الألفية الثانية مجموعة من الممالك التي برزت عشوائيًا في عصور الظلام بينما كانت الدولة العربية الإسلامية في منتصف الألفية الثانية تقريبًا تمتد من شمال أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا مرورًا بالقارة الهندية وأسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا ونمت معها الحياة الفكرية الرائدة على نطاق واسع للغاية لم يسبق لها مثيل في تلك العصور.

مكتبة غرناطة في الأندلس العربية وفي ذلك الوقت الذي كان الظلام فيه يخيم على أوروبا، احتوت على أربعمائة ألف مجلد ضخم تبحث في كافة العلوم والثقافات والحضارات الإنسانية، وتوغل العلماء العرب والمسلمون في أرضيات الطب والرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك، لا أريد الإسهاب في تعداد الأدوار العربية والإسلامية في الحضارة الإنسانية، وفي استعدادات العالم في الألفية الجديدة والاهتمام بها، وأفضل أن أذكر بأن علينا نحن أمة العرب دورًا كبيرًا في هذه الألفية بما يليق بماضينا المشرف وبما يخدم مصالح شعوبنا العربية، وبما يحقق لأمتنا اللحاق بركب الحضارة الإنسانية والإسهام من جديد في كافة الميادين الثقافية والعلمية، بما يليق بهذه الأمة الرائدة ومكانتها بين الأمم.

وهنا أود أن أذكّر بأن مجلة "لايف الأمريكية" أصدرت عددًا خاصًا في نهاية الألفية الماضية، احتوى على أسماء مائة شخصية عالمية أبدعت بعلومها واكتشافاتها وثقافاتها، وأعطت البشرية زخمًا جديدًا من التقدم الحضاري والعلمي، وكان من بين المائة شخصية عشرة علماء من أصول عربية أي ١٠% من علماء العالم كانوا من العرب كرَّمتهم المجلة بنشر نبذة تاريخية عنهم، ألا يحق لنا أن نفخر بهذه الحقيقة؟.

العرب حاولوا مقاومة المد الصهيوني المتغلغل في منطقة الشرق الأدنى، ونشبت عدة حروب بين العرب واليهود خلال الستين عامًا الماضية، انتهت جميعها بفشل العرب في وضع حد للتوسع الإسرائيلي، فبعد الهزيمة العربية الأولى عام ١٩٤٨ والتي نتجت عن دخول الجيوش العربية إلى الحرب على أساس تقديرات خاطئة، إذ كانت الأنظمة العربية في ذلك الحين تعتقد أن اليهود ما هم إلا عصابة من المتشردين، ولا يحتاج القضاء عليهم أكثر من أيام معدودات، ولما بدأت القوات العربية في الحرب ضد اليهود في فلسطين يوم الخامس عشر من أيار عام ١٩٤٨ تبين أن تقديراتهم كانت لا تقوم على أساس، ولا حتى على الحد الأدنى من المعرفة بعدوهم، فأولاً كانوا يجهلون لغته ومعتقداته وخبثه ومؤامراته، واعتماده على الجواسيس والمخبرين، واختراق هيئة الاستخبارات

اليهودية لمعظم الأنظمة العربية، إضافة إلى من تم استخدامهم كمخبرين من العرب، مما سهل صد الهجمات العربية ومواجهة جيوش جاهلة لا تتمتع بثقافة ولا بمعرفة حقيقية بشؤون الحروب، تنقصها الخبرات القتالية، باستثناء ما يحمله ضباط تلك الجيوش على صدورهم من أوسمة ونياشين، يتهيأ للمشاهد أن صاحب هذه الأوسمة هو مونتغمري أو رومل ثعلب الصحراء، برغم أن البعض منهم كان لا يجيد استعمال المسدس العادي، ولا يحق لنا أن نوجه إهانة لهم، بل علينا أن نعترف أنهم كانوا بارعين في قمع الشعوب وقهرها.

خسرنا حرب ١٩٤٨ وفشلنا في وقف التوسع الصهيوني في بلادنا العربية وتغنينا بعدها بالمخلصين الجدد الذين تولوا السلطات عن طريق انقلابات عسكرية، مما أعطى الأمل لأبناء الأمة العربية بمستقبل جيد واستعدادات جيدة لما عرف في حينها بالجولة الثانية من الحرب، فتولى الحكم في سوريا ضباط من العسكريين وكذلك في العراق وفي مصر، وكان ذلك مؤشرًا جديدًا على النصر القادم مما جعل الأمة تتجاوز هزيمة عام ١٩٤٨.

وتوالت الأوضاع غير المحببة بسبب الخلافات العربية التي بدأت تنخر جسم أمة العرب، خلافات كان يهيأ للإنسان العادي أنها ترمي إلى الوصول إلى التنافس في قضية الصراع العربي الإسرائيلي، ولكنها كانت في الحقيقة غير ذلك على الإطلاق، بل كانت صراعًا

عربيًا عربيًا حول السلطة والسيطرة والزعامة، وكانت النتيجة أننا هزمنا مرة أخرى عام ١٩٦٧ شر هزيمة طاب لبعض العرب أن يطلقوا عليها اسم "النكسة" وهي في حقيقتها أكبر هزيمة عرفتها الأمة العربية عبر تاريخها القديم والحديث.

وتبع تلك الهزيمة النكراء مبررات للتنصل من المسؤولية مما يسمى دول الطوق، أي الدول المحيطة بإسرائيل، غير أن الهزيمة وما بعدها من آثار سلبية بقيت تنخر عقول الأمة العربية، إضافة إلى التيه الفكري الذي أحدثته الهزيمة بين أبناء الشعوب العربية، فلم يعد الإنسان قادرًا على التفكير، أو حتى لم يعد قادرًا على متابعة الأحداث والمتغيرات، وانشغل بالمهاترات التي سادت الأوضاع بين الدول العربية كنتيجة طبيعية للسياسات غير المدروسة والدكتاتورية اللعينة، فقبل عام ١٩٦٧ كان العرب يشترون السلاح من روسيا، وأخذوا يهددون إسرائيل بالدمار والإبادة الجماعية لليهود على أرض فلسطين، استغل اليهود بخبثهم ومكرهم وأساليبهم هذه الأمور بالإيعاز إلى الصحافة المأجورة، سواء في العالم العربي أو في العالم الغربي، لتثير في أقوالها وافتتاحياتها قلق العالم من تنامي القوات العربية المحيطة بإسرائيل، وحصولهم على أحدث أنواع الأسلحة، بالتركيز على مصر العربية، لاستدرار عطف العالم على بني إسرائيل الذين يتباكون دائمًا بأنهم الضحية، وأن حوالي ٣٠٠ مليون عربي يحيطون بهم من كل جانب وكلهم

يضمرون العداء لإسرائيل المسكينة، وثانيًا ليحصلوا على الدعم العسكري والمالي والاقتصادي اللامحدود من دول العالم الغربي دون أن يتكلفوا دولارًا واحدًا، وهنا نستطيع القول بإننا نحن العرب كنا السبب الأول في تسليح إسرائيل بكل أنواع الأسلحة المتطورة، بما فيها الطاقة النووية، بسبب خطاباتنا العشوائية وعدم تقدير الأوضاع، وتكالب العالم علينا من أجل حماية بني إسرائيل في فلسطين، وتعهدت الدول العظمى بضمان أمن إسرائيل ووجودها، بل ودعمها وتقويتها بدعوى الحفاظ على أسطورة التوازن العسكري في المنطقة.

بعد البحث والتقصي بأسباب الهزائم العربية والتعتيم الإعلامي العربي المفروض على تلك الهزائم، رأيت أن من حق الأجيال القادمة علينا نحن أهل الفكر من الذين عاصروا الهزائم منذ عام ١٩٤٨ إلى يومنا هذا، من حقهم علينا أن يعرفوا الحقائق المغيبة عن واقع أمتنا العظيمة، ويعرفوا إلى أي مدى وصل تخاذلنا في التعامل مع الغزاة لأرضنا وأوطاننا، وإلى أي مدى تمكنت أنظمتنا العربية من إخفاء الحقيقة عن الشعوب، وبعضها اعتبر الهزائم النكراء نوعًا من النصر العربي، فإذا استمر الحال على ما هو عليه سوف نرى الأجيال القادمة تأخذ بهذه الأكاذيب والافتراءات وتؤمن بها، إن لم تجد الأمة من يصارحها بحقيقة الأمر وحقيقة المأساة التي حوّلت شعوب منطقتنا إلى أموات يتحركون على الأرض لكن

بدون روح وبدون كرامة إنسانية، حيث أخذ العالم يعتبرنا نوعًا من الحيوانات، وهذا يجعلني استحضر إلى الذاكرة قول شاعرنا الكبير نزار قباني في هزيمة عام ١٩٦٧:

إذا خسرنا الحرب.. لا غرابة
لأننا ندخلها..
بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابة
بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة
لأننا ندخلها..
بمنطق الطبلة والربابة

لأجيالنا القادمة علينا حق بأن نطلعهم على حقيقة أمرنا، دون أن نخجل من واقعنا الذي ليس من صنعنا نحن الشعوب المغلوب على أمرها، بل من صنع أحداث لم نرقَ إلى مستوى معالجتها بالطرق السليمة، حيث بقينا نعتمد على منطق الطبلة والربابة في تعاملنا مع الأعداء.

قد يرى البعض أن هذا الكتاب غير مألوف في بحثه حول بني إسرائيل ومسيرتهم عبر التاريخ قديمًا وحديثًا، حيث لم يسبق أن قام مؤرخ أو مفكر عربي بطرق هذا الموضوع بصورة جادة وموسعة، فإن معظم ما تعج به المكتبات العربية من كتب وأبحاث في هذه المسألة جاء بالتقليدية الكتابية من حيث المضامين

والأساليب واللغة، لا اختلاف في المضامين بين كتاب وآخر سوى اختلاف أسلوب الكاتب في فن الصياغة اللغوية واهتمامه ببلاغة النصوص، مما أدى بالتالي إلى توجيه الأجيال العربية المتعاقبة إلى نوع من "عبدة النصوص"، فكانت كارثة فكرية لا حدود لها داهمت حياة هذه الأمة العريقة.

على العموم، هذه محاولة أحسبها جادة وجريئة، وهي دعوة مشجعة للمفكرين العرب للقيام بدورهم المهم واللازم في كشف الحقائق المتعلقة ببلادهم وأوطانهم وشعوبهم على مرّ العصور، وإني أرجو الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في هذا البحث، وفي الوصول إلى جزء من الحقيقة، إن لم تكن الحقيقة بعينها، حيث أن هذا البحث تطلب الكثير من الاستقصاء والسفر والمتابعة والجهد والوقت، فكان ثمرة أبحاث دامت قرابة حولين ويزيد.

الدكتور شفيق الخليل